

قال تعالى: وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ [البقرة: ١٥٥ ١٥٧]. عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما من أحد تصيبه مصيبة، وأخلف لي خيراً منها – إلا أجره الله في مصيبته، إن هذه الكلمة واحدة من أكثر العلاجات فعالية للمصابين، حيث تحتوي على مفهومين أساسيين يمكن أن يجد فيهما المصاب الراحة: الأول هو أن المصاب وكل ما يملكه يعود إلى الله تعالى، فكمال الله الحقيقي هو الله وحده، وهو من واحد تأخذ كل شيء للحظة معينة ثم يسترد كل ما أخذ. المخلوق لا يملك سوى ما له من الله، ولا يحتفظ بماله وأهله إلا لوقت محدد. الثاني هو أن مصير المخلوق هو الرجوع إلى الله تعالى مولى الحق، حيث يترك كل شيء في الدنيا ويعود إلى الله وحده، ويحاسب على أعماله الحسنة والسيئة. وجزء من علاج هذا الألم هو أن يدرك المصاب أن كل ما يحدث له ليس ليخطئه، قال تعالى: «مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ تَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ». من العلاج الفعال للمصائب أن يتفكر الشخص فيما أصيب به، ويدرك أن ربه قد أبقي عليه ما هو أفضل أو مثل ما فقد. إذا استطاع أن يكون صبوراً وراضياً، سيجد أن ما فوته في المصيبة قد كانت خيراً له. يجب أن يتعلم أيضاً كيف يُطفئ نار المصيبة بتعاطفه مع الذين يمرون بمصائب مماثلة. فالابتسامة قد تتبدل بالبكاء والسرور اليوم قد يليه حزن طويل. لذلك يجب أن يكون الإنسان على استعداد للتغيرات المفاجئة التي قد تحدث في حياته، وأن يستفيد من الدروس التي تتركها له تلك التحولات. الحكمة والعبر تكمن في كل شيء، فكل فرحة تحمل مشاكلها المحتملة ولا يمكن لأي بيت أن يظل مليئاً بالفرح إلى الأبد. وعندما تبكي المرأة من حزنها، فإنها قد ترى الحزن في بقاء دارها التي مضت عليها فترات سعيدة. قصة هند بنت النعمان تعكس تلك التبدلات السريعة في الحياة، حيث كانت في البداية من أعز الناس ثم انقلبت الأحوال. ووجودها في دار مليئة بالبركات لم يمنعها من الحزن، وهذا يعكس دور العبرة في تلك التجارب. عندما سأل إسحاق بن طلحة عن تجربة الملوك، ردت بأنهم لا يعيشون في الحظوظ إلى الأبد، والدنيا متقلبة كما أن الحميم الذي يحبه الإنسان قد يتحول إلى بطن يكرهه بعد فترة. فالتقلبات والتحولات هي جزء من حياة الإنسان ولا تدوم السعادة والنعيم بشكل دائم. من أعلاج المصائب هو تذكير الإنسان بأن الجزع لن يغير الوضع، فعندما يزداد الشخص في الحزن، ومن أساليب العلاج أيضاً أن يتذكر الإنسان أن فوت ثواب الصبر والتسليم، فالصبر والاحتساب هما السبيل الحقيقي للتغلب على الصعاب. ويجب على الإنسان أيضاً أن يدرك أن الجزع يعطي الفرصة لأعدائه ليساءوا ظنه بهم، ويجعل صديقه يشعر بالإزعاج، ولذلك يجب أن يظل الشخص صبوراً ويحتسب الأجر، ومن النصائح الأخرى لعلاج المصائب هو التفكير في كل لحظة صبر واحتساب، فاللذة والمسرة التي تأتي بعد الصبر أضعاف ما كان متوقفاً في الأصل. إذا كانت المصيبة سبباً لبيت الحمد في الجنة، فما أكثر النعم التي تنتظر الصابرين. ومن الأساليب الفعالة لمواجهة المصائب هو التوجه بروح الرجاء إلى الله، فإنه الوحيد القادر على تعويض كل شيء. الإنسان يجب أن يتذكر دائماً أنه لا يوجد عوض على الله. ويجب على الإنسان أيضاً أن يدرك أن حظه من المصيبة يرتبط برد فعله. ينبغي عليه اختيار كيف يتصرف في مواجهة المصيبة. الصبر والاحتساب يكونان السبيل للنجاة، بينما السخط والشكاية يكتب في ديوان المفرطين. في مسند الإمام أحمد والترمذي يروى من حديث محمود بن لبيد أن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، وزاد الإمام أحمد قائلًا: "ومن جزع فله الجزع". هذا يعني أن الله يختبر من يحب بالابتلاءات ويوجههم نحو الصبر والرضا. في ظل الابتلاءات يجب على الإنسان أن يعلم أنه على الرغم من وصوله إلى قمة الجزع، لأن الانزعاج والقلق لا يجديان نفعاً ولا مكافأة. هناك قول حكيم يقول: "العاقل يتصرف في اليوم الأول من المصيبة كما يفعل الجاهل بعد عدة أيام". ومن لم يصبر كما ينبغي فإنه يتساوى مع سواد البهائم. وفي الصحيح مرفوعاً: "الصبر عند الصدمة الأولى". وقد قال الأشعث بن قيس: "إن صبرت بإيمان وتوكلت كان خيراً لك، وإلا فتلك هي صفة البهائم". يجب أن يعرف الإنسان أن أفضل أدوية علاج الابتلاءات هي وفق رضا الله واختياره لما يرضاه، فالمحبة تكمن في موافقة المحبوب. من يدعي المحبة ويفعل ما يسخط المحبوب، فإنه يكون كاذباً على نفسه ويقع في عداة المحبوب. هناك قول يقول: "إذا قضى الله قضاءً أحب أن يرضى به". وكان عمران بن حصين يقول في علته: "إنما يحب ذلك لي والله". وهذا الدواء والعلاج لا يعمل إلا مع المحبين والمؤمنين برضا وقضاء الله. يجب على الإنسان أن يوازن بين اللذتين الكبرى والصغرى: لذة تحقيق مراده في الدنيا، ولذة الثواب من الله. فإن وجد الراجح فليحمد الله، وإذا وجد المرجوح فليعلم أن مصيبته في عقله ودينه أخطر من مصيبته في دنياه. الإنسان الذي يعيش في الابتلاءات يجب أن يعلم أن الله هو الحاكم العادل والرحمن الرحيم، وأن البلاء ليس لتدميره أو تعذيبه، ولذلك يجب عليه أن يلتجئ إلى الله في تضرع وابتهاال، قال الشيخ عبد القادر: "يا بني، بل لتمتحن صبرك وإيمانك يا بني". يعني الشيخ أن المصائب هي طريقة يختبر بها الله صبر الإنسان وإيمانه. كما أنها وسيلة للتطهير والنمو الروحي. ومن الإيضاح الذي قدمه الشيخ أن الإنسان في وجه مصيبة مرت بالاختبار، أما

سيظهر خيرًا أو شرًا حسب ما يحتوي في باطنه. وإذا لم تكن النتائج إيجابية في ذلك الاختبار الأول، فإن الإنسان مطالب بتقدير نعم الله عليه في سياق ما سيأتي في المستقبل. يمكن علاج الألم الذي قد يتسببه الاختبار عن طريق تقدير المكانة التي ستجعل الخلق أكثر تطهيرًا وصفاءً. يعني ذلك أن الله يعرف كيف يخلص عباده من أمراض القلب الناشئة عن مصائب الدنيا ويبقيهم على سياق الأحكام السماوية. الرحمة من الله تظهر في الأوقات الصعبة عبر توفير نوع من الأدوية الروحية المنظفة التي قد تساعد الإنسان على مواجهة التحديات. هذه المصائب تمثل تحديثًا لحياة الإنسان الروحية وسبيل من الثقة بنعم الله واستشراق أعماق الوجود. تظهر تفاوت أفكار الناس وتبرز حقائقهم. هناك من يُفضل اللحظات السعيدة المؤقتة على السعادة الدائمة التي لا تنتهي، ولن يحتمل المرارة من أجل لحظة سعيدة أبدية، أو الذل من أجل لحظة عز بلا نهاية، أو المحنة من أجل عافية دائمة. إن الحاضر لديه شهادة، وسلطان الشهوات يحكم. ومن هذا ينشأ تفضيل الدنيا على الآخرة، ادع نفسك إلى ما أعد الله لأوليائه وأهل الطاعة من النعيم الدائم والسعادة الأبدية والفوز الأكبر، وما أعد لأهل الكسل والضياع من الخزي والعذاب والندم الدائم. ثم اختر بحكمة بين الطريقين، فكل شخص يعمل وفقًا لاهتماماته وما يراه الأولى له. إن عدم الالتفات إلى هذا العلاج يجعل الحاجة له أكثر إلحاحًا، ولذا يجب أن يتم تطبيقه بشكل صارم وفعال.